حوار مع الأم

جميع الحقوق
محفوظة ومسجلة

الطّبعة الأولى
١٤٤٠هـ ٢٠١٩م

www.alhatali.com

رؤى

اطلبه من:
مكتبة السيدة فاطمة الزهراء
هاتف: 92908620
92988061
25434506

تنفيذ طباعي
دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٤١٣٢٥٦ / ٠٣- بيروت لبنان
dar.alkari2012@gmail.com

سلسلة حوارات هادفة (٢)

حوار مع الأم

د. صالح بن مطر الهطالي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحوار الأول:
تربية الأطفال أمانة عظيمة

استيقظتُ صباح هذا اليوم، فأخبرتني زوجي بأنها تشعر بغثيان وآلام في الظهر، فأخذتها إلى المستشفى، وبعد مقابلة الطبيبة، وإجراء بعض الفحوص دخلت زوجي مرة أخرى على الطبيبة لترى نتائج الفحوص، وبعد قليلٍ خرجت، ثم قالت لي بنبرة مضطربة: هيا بنا!! فسألتها: ما الخبر؟!! فردَّت عليَّ: سأخبرك بكل شيء في السيارة!!

بقيتُ في خوفٍ وقلقٍ لا يوصفان، وخشيتُ أن تكون الفحوصُ قد أظهرت أنها مصابة بمرضٍ خطير!! عندما ركبنا في السيارة، أقبلتُ

عليها، والقلق بادٍ على وجهي، وقلتُ لها: خيرًا إن شاء اللَّه يا أمَّ عبداللَّه؟!! أخبريني ماذا جرى.

التفتَتْ إليَّ، وقالت بابتسامة: أريد أن أخبرك بأمر سيسرُّك إن شاء اللَّه. رددتُ عليها والقلق ما زال باديًا عليَّ: خيرًا إن شاء اللَّه؟ فقالت لي بصوتٍ يمتزج بالبهجة والسرور: أنا حامل يا أبا عبداللَّه!! ما إن سمعتُ مقولتها حتى كدتُ أن أقفز من مكاني، فقلتُ لها: أصحيحٌ ما تقولين؟!! فقالت: نعم، لقد أكَّدَتْ لي الطبيبة ذلك، فقلتُ: الحمد لله رب العالمين، وبدأتُ أدعو اللَّه بأن يُسهِّل عليها الحمل والوضع والرضاع والتربية.

بعد أن تحركت السيارة، لاحظتُ أن زوجي قد بدتْ مهمومة وسارحة، فالتفتُّ نحوها، وقلتُ لها: خيرًا يا أمَّ عبداللَّه؟!! ماذا بك؟ هل

أنتِ مريضة؟ فقالت بصوتٍ حزين: أنا بخيرٍ والحمد لله، ولكني خائفة!! ظننتُ أنها تفكر في يوم الولادة، وهي خائفة من ذلك اليوم، لما تسمع به من الآلام الشديدة والمعاناة المريرة التي تمرُّ بها النساء الحوامل، وخصوصًا في ذلك اليوم. رددْتُ عليها مازحًا، وأنا أريد تسليتها: هوِّني عليكِ يا أمَّ عبداللَّه، فإنه لا يزال أمامك بضعة أشهر حتى ذلك اليوم.

ردَّتْ بنبرة فيها من الألم والحُرقة ما لا يخفى، وقالت: إن الأمر ليس كما تصوَّرتَ يا أبا عبداللَّه، فإني لستُ خائفة مما سأعانيه من مشقة الحمل ومكابدة آلام الوضع، فذلك، وإن كان شاقًّا عسيرًا، لكني على ثقةٍ بأن اللَّه سيُسهِّله عليَّ، ولن يتركني لنفسي، وإنما سيزيل عني- بإذن اللَّه- تلك المتاعب والآلام. فقلتُ

لها: ولماذا كل هذا الخوف والقلق إذن؟!!
فقالت: إني أفكر فيما بعد الولادة!!

ظننتُ أنها تفكر في وضعنا المالي، وأن حالتنا المادية الصعبة التي نمرُّ بها قد تكون سببًا في شقائها وشقاء الطفل، فراتبي الذي أتقاضاه لا يكاد يَسُدُّ احتياجات البيت. ظننتُ أنها تفكر أن طفلنا سينشأ ولن يجد عنده ما هو موجودٌ عند أقرانه من الأطفال من أنواع اللعب وصنوف الملابس. قلتُ لها: لا تقلقي يا أمَّ عبداللَّه، فإن اللَّه سيُدبِّر لنا- بإذن اللَّه- أمورنا بعد الولادة، وسيُهيِّئ لنا المال الذي سنحتاجه لشراء أفضل أنواع الألعاب وأجود أنواع الثياب، ولن يشعر طفلنا- بإذن اللَّه- بأيِّ فارقٍ بينه وبين الأطفال الآخرين الذين سيلعب معهم أو يصاحبهم في المدرسة.

سكتتْ زوجي ولم تردَّ عليَّ، وإنما بقيتْ واجمة، فعرفتُ أن ما قلتُه لم يكن السبب في حزنها وقلقها، وإنما هي تفكر في أمرٍ آخر، فقلتُ لها: يبدو أنك تفكرين في أمرٍ ليس على بالي، فردَّتْ عليَّ بسرعة وصوتها يتقطع، فقالت: عهدي بك أنك من العقلاء، ومن الذين يخافون اللَّه سبحانه وتعالى.

عجبتُ من كلامها هذا، فقلتُ لها: إني أحاول أن أكون هكذا يا امرأة، فما الذي غيَّر نظرتك تجاهي؟!! فقالت: إذن، إذا كنتَ كذلك، أريدك أن تعلم أني خائفة من مصير ابني!! ازددتُ عجبًا مما أسمع منها، وظننتُ أنها تفكر فيما لو أصيب الطفل بمرض أو حادث أو أيِّ شيء آخر قد يؤدي به إلى الوفاة، فقلتُ لها مندهشًا: ويحك يا امرأة، إن الطفل لا

يزال جنينًا، والأعمار بيد اللَّه، فلماذا تتشاءمين هكذا؟!!

ردَّتْ عليَّ مرة أخرى بنبرة حزينة، وقالت: إن الأمر ليس كما تفكر يا أبا عبداللَّه. إن إنجابي لطفلٍ في جمال يوسف- عليه السلام-، وفي حلم المصطفى ﷺ، وفي فصاحة هارون- عليه السلام-، ثم أن يقبض اللَّه روحه بعد إنجابه لأهون عليَّ من الأمر الذي أفكر فيه!!

فقلتُ لها: أستغفر اللَّه، ما هذا الكلام يا امرأة؟ أراك اليوم في حالة من التشاؤم واليأس!! ما الذي حلَّ بك؟!! لقد عهدتُّكِ امرأة حليمة، واقعية، راضية بقضاء اللَّه وقدره في جميع أمورِك، وتحمَدين اللَّه في جميع أحوالك، فما الذي أسمعه منكِ اليوم؟!!

إنجاب الأطفال قد يكون سببًا في صلاح المجتمع أو شقائه

ردَّت عليَّ بكلمات خافتة متقطعة، وقالت: إني أفكر في مصير الأَمانة العظمى التي شاء اللَّه أن يُحمِّلنا إياها!! إنك تعلم أن الحمل والولادة ما هي إلا تهيئة للأبوين ليحملا عبء الأمانة الكبرى التي أُلقِيَتْ على عاتقهما.

أحسستُ بأن الكلام قد بدأ يأخذ منحًى آخر، وأن المرأة في خاطرها أمرٌ تريد الإفصاح عنه وتجليته لي، فقلتُ لها: أفصحي يا أم عبداللَّه، فإني لا زلتُ لم أستوعب ما تقصدين.

قالت: إنك تعلم أن اللَّه- سبحانه وتعالى- ما جعل سنة الزواج فقط لأجل أن يقضي الزوجان وطرهما، ويسدَّان بذلك شهوتهما، ولكن الأمر أبعد من ذلك بكثير، وأخطر من ذلك بمراحل،

فإن اللَّه- سبحانه وتعالى- أراد للأسرة أن تكون البذرة التي من خلالها يتواصل النسل، وبسببها يحصل صلاح المجتمع أو فساده، وهذا ما يقلقني كثيرًا؛ فإني أخاف أن لا أُوفَّق إلى تربية طفلي حسبما أراد اللَّه- سبحانه وتعالى- فنكون قد أنبتنا بذرة شرٍّ والعياذ باللَّه، ونكون سببًا في إفساد المجتمع لا سمح اللَّه.

بدأتُ أفهم ما تعنيه زوجي، وبدأتُ أشعر أيضًا بثقل الأمانة التي شاء اللَّه- سبحانه- أن يُحمِّلنا إياها، فما مجيء المولود إلا ابتلاء للزوجين وتمحيصٌ لإيمانهما، ومجيؤه- كما قالت زوجي- إما أن يكون سببًا لسعادة والديه وأهله والمجتمع، وإما أن يكون عكس ذلك، والعياذ باللَّه.

الاعتماد على الله هو الخطوة الأولى لنجاح التربية

حاولتُ أن أُلطِّف عليها وأهوِّن عنها ما تجده من ثقل هذا الحِمْل الذي شرفنا اللَّه به، وكرمنا بأن جعلنا راعين له، فـرددتُ عليها وقلتُ: صدقتِ يا أم عبداللَّه، فإن الأمر كما قلتِ، وإنه لحقٌّ لمثلِك ومثلي أن يعتريه القلق والخوف من التقصير في حمل هذه الأمانة، ولكن أحبُّ أن أخبرَك بأمرٍ علَّه يُسلِّيكِ، ويسليني أنا أيضًا.

أقبلت عليَّ بوجهها، وكادت أن تُفصِح عن ابتسامة لولا أنها كانت لا تزال تجد في نفسها حُرقة مما تحسُّ به، وردَّت بسرعة، وهي تظن أني قد وجدتُ لها مخرجًا مما ينتابها من شعور مرير مما سيؤول إليه أمر أسرتنا بعد بضعة

أشهر، وقالت: ما هو؟!! تكلم يا أبا عبداللَّه، قل لي ما هو!!

قلتُ لها: إنك تعلمين إن اللَّه- سبحانه وتعالى- قد أكرمنا بالإسلام، وزيَّـن قلوبنا بالإيمان، ورزقنا حبه وحبَّ نبيه ﷺ، وبعث في قلوبنا داعيَ الخير لنقوم بأمر الدعوة إلى دينه والعمل لكل ما يحبه ويرتضيه سبحانه.

ردَّت عليَّ بصوت متثاقل، وكأني خيَّبتُ أملها فيما كانت تظنُّ أن يكون متنفَّسًا من آلامها ومخرجًا من كربتها، فقالت: أدري ذلك، ولكن ما علاقة هذا بما قلتُه أنا لك؟!!

قلتُ لها: إنك تعلمين أيضًا أن كل ما في هذا الكون مسخرٌ بأمر اللَّه، وأنه لا يحدث فيه شيءٌ خارجٌ عن إرادته، وبعيدٌ عن حكمته وحسن تدبيره.

قالت: ونِعْمَ باللَّه.

قلتُ لها: إذن عليكِ أن تعلمي يا أمَّ عبداللَّه، أن اللَّه ما أوجدنا في هذا الزمان بالذات إلا لحكمة يعلمها سبحانه، وما جمع بيني وبينِكِ إلا لأمرٍ يريده، وما رزقنا هذا المولود إلا لسبب يعلمه.

وإذا كنا نحسن الظن به- سبحانه-، ونفوِّض أمورنا إليه، وندرك تمام الإدراك أنه لا يريد بنا إلا خيرًا، وأنه قد اختصَّنا بالإسلام والإيمان والتقوى، فإنه لن يتركنا لأنفسنا، ولن يترك الأمر لطاقاتنا وقدراتنا، ولكنه سبحانه- وأنا على يقين من هذا- سيبقى معنا، وسيُدبِّر أمورنا، وسيُلهمنا رشدنا، وسيعيننا على حمل هذه الأمانة على أكمل وجه.

على الأبوين أمانة تعلُّم أساليب التربية الصحيحة

سُرَّت زوجي كثيرًا بما قلتُه لها، ولكن- فيما يبدو- كانت لا تزال في نفسها أمورٌ لم تتجلَّ، فقالت: إني أثق في قدرة اللَّه- سبحانه وتعالى- ومشيئته وحكمته، وإني على يقين كذلك بأنه- سبحانه- لن يتركنا، وأنه سيوفر لنا السبل والوسائل التي ستعيننا على القيام بهذا الواجب على أكمل وجه. ولكن- كما تعلم- فإن هناك الكثير من الأمور التي علينا أن نتعلمها لكي نستطيع أن ننشِّئ أطفالنا كما يريده- سبحانه وتعالى- منا. لذلك، أقترح يا أبا عبداللَّه أن نُخصِّص لأنفسنا في كل يوم وقتًا نتعلَّم فيه ما يتعلق بتربية أطفالنا، لكي نستفيد من بعضنا البعض.

ابتسمتُ لها، ثم قلتُ: إنها فكرة طيبة يا أمَّ عبداللَّه، وإني أقترح أيضًا أن تستفيدي من خبراتِ النساء الأخريات اللواتي ينظرنَ إلى مسألة تربية الأطفال على أنها رسالة، وفي الوقت نفسه فعندهنَّ من التقوى والعلم ما يجعل الإنسان يثق بكلامهنَّ وتجاربهنَّ.

قالت: صدقتَ يا أبا عبداللَّه، فإن أمثال هؤلاء النسوة قد مررْنَ بما نمرُّ به نحن الآن، وأصبح عندهنَّ من العلم والفهم ما نفتقر إليه.

تربية الأطفال لا تكون على حساب الدين

قلتُ لها: ولأننا قاربنا الوصول إلى البيت، وأريد الذهاب مباشرة إلى العمل، فإني أريد أن أذكر أمرًا يقلقني ويشغل بالي كثيرًا.

نظرتْ إليَّ باستغراب، ثم قالت: وما هو يا أبا عبداللَّه؟!!

قلتُ لها: أعلم أنك امرأة مطيعة لربك، مهتمة بأمور دينك، حريصة على الاستزادة من العلم والمعرفة من خلال القراءة والاستماع إلى المحاضرات. وما أتخوف منه هو أنه عندما نرزق بطفلنا الأول، فإنه- بلا شك- سيأخذ من وقتِكِ الشيء الكثير، وأخاف أن يكون ذلك على حساب دينِكِ وواجباتِكِ.

ردَّت بانشراح: جزاك اللَّه خيرًا يا أبا عبداللَّه على تذكيري بهذا الأمر، فإنه أمرٌ بالغ الأهمية، وإني أشاطرك الرأي أن تربية الأطفال تستنزف غالبية وقت الأم، وربما يؤثر ذلك على أدائها للفرائض والواجبات والحقوق، وقد تفرِّط في حقوق ربها وزوجها وأقاربها.

قلتُ لها: وكما تعلمين، فهذا أمرٌ خطيرٌ جدًّا؛ فالأم قد تكون عندها النية الحسنة لتنشئة أطفالها على الاستقامة والصلاح، ولكنها بتفريطها في حقوق ربها والناس ستكسب من المعاصي والآثـام ما يُوقِعها في سخط اللَّه- سبحانه وتعالى- وغضبه، وعندها تتحوَّل جهودها في تربية أطفالها وبالًا عليها.

إن ما دعاني لهذا القول هو ما ألاحظه من انشغال بعض الأمهات بأطفالهنَّ وبإعداد الطعام للأسرة، وبالمقابل، إهمالهن لحقوق ربهن وأزواجهن. وقد سمعتُ بعض الأزواج يتشكَّوْنَ من أن زوجاتهم أصبحن لا يكترثن بهم كثيرًا، وإنما جُلُّ اهتمامهنَّ هو أطفالهن، فتجدها في الليل قائمة ساهرة على الطفل، والزوج يتقلب في الفراش ولا يجدها بجانبه.

كذلك، عندما تقوم الزوجة لأداء الصلاة، فإنها تصليها وقلبها يفكر في الطفل، فلا تعي من صلاتها شيئًا. وبالإضافة إلى ذلك، قد تضيِّع واجبات أخرى كقراءة القرآن وأداء النوافل والطاعات والاستزادة من العلم. والمصيبة أن غالبية النساء لا يُدرِكْن ما يَقَعْن فيه من تفريط في تلك الحقوق، ولا يدرين أن تربية أطفالهن قد صارت على حساب دينهن، وعلى حساب حقوق ربهن وأسرتهن.

قالت، وبواعث السرور والانشراح بادية على وجهها: أحسنتَ يا أبا عبداللَّه في إيضاح هذه الأمور لي، وفي تبصيري بأمورٍ كانت غائبة عن بالي.

قاطعتها قائلاً: إن الفضل يعود أولاً وآخرًا إلى اللَّه- سبحانه وتعالى- الذي ألَّف بين قلوبنا

بطاعته، وجمع بين أفئدتنا بحبه وتقواه، ونسأله- سبحانه- أن يجعلنا ممن يحبهم ويرتضيهم. وأحب أن أقول لكِ بأنكِ وإن كنتِ تحملين ذلك الجنين في رحِمِكِ فإني أحمله في قلبي، وأضع له مكانًا خاصًّا بجوار منزلتك الرفيعة التي تتبوئينها في مهجتي.

قالت: الحمد لله على هذه النعمة العظيمة، فإن مجرد سماع هذا الكلام منكَ يجعلني أنسى كل همومي، وأسأله- سبحانه- أن يعيننا على حمل هذه الأمانة العظيمة التي شرَّفنا بها- سبحانه-.

قلتُ لها مبتسمًا: صدقتِ يا أمَّ عبداللَّه. والآن، عليكِ أن تأخذي قسطًا من النوم، فالجنين- بلا شك- قد أصابه الكثير من الإعياء،

ونحن ننتقل به من مكان لآخر!! أما أنا فإني سأذهب إلى العمل، فقد تأخرتُ قليلاً.

ابتسمتْ وشكرتني، ثم دعتِ اللَّه أن يوفقني ويحفظني، ثم دخلتْ البيت، بينما توجهتُ أنا مباشرة إلى العمل.

الحوار الثاني: تهيئة البيئة الصالحة للطفل

كنتُ أزور إحـدى جـاراتـي، فأخبرتني بأنها شاهدتْ إعلانًا بأن مدرسة أشبال القرآن الخاصة ستقيم ندوة حول أساليب ووسائل التربية الصحيحة للأطفال، وأن مَن سيقدمها هي الأستاذة عبير، المتخصِّصة الاجتماعية بالمدرسة، وهي امرأة فاضلة معروفة بصلاحها، وتقيم ندوات ومحاضرات كثيرة حول تربية الأطفال. اتفقنا أنا وجارتي سمية على الذهاب لهذه الندوة.

عندما حضرنا الندوة، وبدأتْ الأستاذة عبير الحديث، قالت بأنها ستنتهج في هذه الندوة أسلوبَ المحاورة، لتكون الفائدة أعم، وليتاح

للحاضرات المشاركة بأسئلتهنَّ واستفساراتهنَّ. سُعِدتُّ كثيرًا لهذا؛ فقد كانت في بالي الكثير من التساؤلات حول القضايا المتعلقة بتربية الأطفال. كذلك، أخبرتنا الأستاذة عبير بأنها ستخصِّص هذا اللقاء للحديث عن كيفية تهيئة البيئة الصالحة لتنشئة الطفل، سواءٌ داخل البيت أم خارجه.

تهيئة الجو الإيماني في البيت

ما إن أنهتْ الأستاذة عبير مقدمتها، وأتاحتْ للحاضرات فرصة المشاركة، حتى قامتْ جارتي سمية، وهي أمٌّ فاضلة استطاعت- بتوفيق اللَّه وعونه- تنشئة أطفالها الستة على الأخلاق الفاضلة والتفوُّق الدراسي.

شكرتْ سمية الأستاذة عبير على هذه الندوة، ثم قالت: الأستاذة عبير وأخواتي الفاضلات، إن المسكن الذي تتوافر فيه وسائل الراحة والهدوء والأمن نعمةٌ عظيمة علينا استغلالها فيما يرضي رب العزة والجلال. كذلك، إن وجود عدد من أفراد العائلة في منزلٍ واحد يُعدُّ أيضًا نعمة عظيمة، ولكن علينا أن نفكر في كيفية الاستفادة منهم في طاعة اللَّه؛ وذلك بأن نُشغِلهم بما سيعود عليهم وعلى غيرهم بالفوائد العظيمة.

إنه من المعلوم أن الطفل- حتى وإن كان جنينًا- فإنه يتأثر كثيرًا بالجو الذي يكون في المنزل. لذا، فإني أعتقد أنه من الضروري تهيئة الجو الإيماني في البيت، من ذكر اللَّه وتلاوة القرآن، والهدوء وخفض الصوت عند الحديث. وعلى الوالدين أن يكونا قدوة لأطفالهما، وذلك

من خلال تمسُّكهما بهذا الدين وممارستهما للشعائر التعبُّدية بكل إخلاص وتقوى؛ فإن القيام بمثل هذه الأعمال يجعل مشاعر الأم وأحاسيسها تسير وفق ما أراده اللَّه- سبحانه وتعالى-، وهذه المشاعر والأحاسيس ستنعكس بدورها على الطفل.

وأما إذا كان البيت لا يُسمع فيه إلا الصراخ والشتائم والسباب، ولا يُذكَر فيه اللَّه ورسوله إلا قليلاً، ولا يرى الطفل أبويه يهتمان بأمور الدين، فإنه- لا محالة- سينشأ على ما يسمع ويشاهد. وإذا كان لا يسمع إلا القرآن والكلام الطيب النابع من إيمان عميق من الأبوين، فإن ذلك سيكون- بإذن اللَّه- سببًا في زرع بذرة الخير في نفسه.

بعد أن جلستْ جارتي سمية قامت إحدى الأخوات فأردفتْ قائلة: وعلينا كذلك أن لا ننسى الدعاء، فإنه سلاح المؤمن، كما أوصى بذلك رسولنا- عليه أفضل الصلاة والسلام-. والأم بحاجة إلى التضرُّع إليه- سبحانه- ليس فقط لتسهيل أمور الحمل والوضع عليها، وإنما لغرس بذور الإيمان في ذلك الجنين، ولتوفيقها وزوجها لتربية طفلهما على الاستقامة والصلاح. ولنا في نبي اللَّه زكريا- عليه السلام- أسوة حسنة حين نادى ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨)، فكانت النتيجة: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ٣٩)، وأيضًا حين

نادى إبراهيم- عليه السلام- ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات: ١٠٠)، فكانت النتيجة: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠١).

قامت أخت ثانية، فقالت: إن إكثار الأم من تلاوة القرآن وذكر اللَّه وخشوعها في صلاتها، وغير ذلك من أنواع العبادات، سيبعث في نفس الأم السكينة والطمأنينة، وهذه بدورها ستؤثر في الراحة النفسية للجنين.

علّقت الأستاذة عبير قائلة: وعلى النقيض مما ذكرتُنَّ يا أخواتي، فإن الجنين يتأثر أيضًا بالعادات السيئة التي تمارسها الأم أثناء حملها؛ فإدمان الأم على التدخين مثلًا يؤثر تأثيرًا بالغًا على صحة الجنين البدنية. كذلك، إن ممارسة الأم للكذب والغيبة والنميمة أو سماعها لها، أو

خوضها في المحرمات الأخرى، قد يؤثر على الجنين من النواحي الروحية والأخلاقية.

تعلُّم أساليب التربية الصحيحة

قامت إحدى الأخوات، فقالت: أعتقد أن من أهم القضايا التي على الأبوين العناية بها بعد زواجهما قضية تعلُّم فنون وأساليب التربية الصحيحة للأطفال؛ فكثيرٌ من الآباء والأمهات ليس عندهم العلم الكافي لتمييز النافع من الضار من أساليب التربية، ولا من الفهم ما يعينهم على تتبُّع مراحل عمر كل طفل من أطفالهم، وتخيُّر ما يناسب كل مرحلة من الأساليب والوسائل. وسؤالي للأستاذة عبير: كيف يمكن للوالدين أن يكسبا ما يحتاجانه من علم ومعرفة تتعلق بتربية أطفالهم؟

ردَّت الأستاذة عبير، فقالت: يا أخواتي، إن الأمر قد بات- بحمد اللَّه- ميسَّرًا في هذه الأيام؛ فهناك الكثير من الوسائل التي يمكن أن تُعين الأبوين على تعلُّم أساليب التربية، وتعطيهم الفهم الذي يحتاجان إليه للتعامل مع أطفالهم بطريقة صحيحة. وأنتنَّ تعلمْنَ أن هناك الكثير من الكتب والمقالات والمحاضرات السمعية والمرئية التي تتحدَّث عن تربية الأطفال، والتي بمقدور معظم الناس اقتناؤها. ولا ننسى أيضًا أنه تقام بين فترة وأخرى بعض الدورات المتخصِّصة في تربية الأطفال وفي أساليب التعامل معهم.

قامت أختٌ أخرى، فقالت: عندي تعليق على ما ذكرتِ يا أستاذة عبير حول ما يمكن الاستعانة به من مواد لتعلُّم وسائل وأساليب

التربية الصحيحة. إنـي ألاحـظ أن معظم الأمهات لا يلجأْنَ إلى هذه المواد إلا بعد أن يبدأ طفلهن الأول القيام بأفعال لا يَدْرِين كيف يتصرَّفْنَ حيالها. وفي رأيي أن على الزوجين أن يُهيِّئا نفسيهما للحمل الأول منذ الأيام الأولى لزواجهما؛ وذلك بحضور الدورات المتخصِّصة في تربية الأطفال، وقراءة الكتب النافعة، والاستماع إلى المحاضرات المفيدة.

ردَّت الأستاذة عبير قائلة: أحسنتِ يا أختي الكريمة، فإن تربية الأطفال عملية متشعِّبة جدًّا، ولا يمكن للأبوين الاقتصار على حضور دورة واحدة فقط أو القراءة في كتاب أو كتابين، وإنما هي عملية مستمرة تبدأ منذ الزواج، وتتواصل إلى أن يكبر الأولاد ويتزوجون!! كذلك، إن على الأبوين أن يستفيدا من أوقاتهما في مطالعة

الكتب وسماع المحاضرات، وأن يضعا لهما برنامجًا يتحاوران فيه حول ما يقرآنه من كتب أو يسمعانه من محاضرات، أو ما يستفيدانه من الدورات التي يحضرانها.

أضافت جارتي سمية، فقالت: أعتقد أن على الأم خاصة- والأبوين عامة- أن يكون عندهما حصيلة لا بأس بها من القصص الممتعة والهادفة، والتي تناسب عمر كل طفل، والتي يستطيعان قصَّها على أطفالهما عندما يكونان في البيت أو في السيارة، أو عندما يذهبان للنزهة. وكما هو معروف، فإن الأطفال يحبُّون القصص، ويتعلمون منها أكثر مما يتعلمون بطريقة التلقين.

كذلك، أرى من الضروري أن يكون لدى الأبوين من الأساليب والعبارات التي تزرع

بذور الإيمان في نفس الطفل، وتغرس فيه حبَّ اللَّه وحبَّ رسوله ﷺ وحبَّ القرآن. وبالإضافة إلى ذلك، فإن على الأبوين أن يكونا قادرَيْن على استغلال المواقف لغرس معاني الإيمان ومفاهيم الدين في عقل الطفل؛ فلو شاهدا طائرًا أو جبلاً أو سيارة أو أيَّ شيءٍ آخر، فعليهما أن يُعلِّقا على ذلك بعبارات تغرس في الطفل المعاني والقِيَم السامية التي جاء بها ديننا الحنيف، والأفضل أن يكون ذلك على شكل قصة، فهي أدعى للقبول عند الطفل.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: أظن أن ما ذكرته الأخت الفاضلة هو في غاية الأهمية؛ لأن الأبوين يصبحا وكأنهما مدرسة تنتقل مع الطفل حيثما كان، وفي الوقت نفسه هي وسيلة رائعة لاستغلال أوقات الأطفال وقدراتهم الذهنية في

كسب المعلومات النافعة والسلوك الحسن. لكن ذلك يستدعي أن تُجهِد الأم نفسها، وبشكل متواصل، في البحث عن تلك القصص والعبارات في الكتب والمجلات المتخصِّصة في الأسرة وتربية الأطفال، وكذلك في مواقع الإنترنت المعنية بهذا الشأن.

المكتبة المنزلية وأهميتها في التربية

علَّقت إحدى الأخوات قائلة: وأحبُّ أن أضيف إلى ما ذكرته الأستاذة عبير أنه من الضروري إيجاد مكتبة في المنزل تحتوي على مواد منتقاة بعناية من قِبَل الوالدين، ليستطيع الطفل قضاء بعض أوقاته في هذه المكتبة، وأقترح أن تحتوي على الكتيبات المفيدة والقصص الهادفة المناسبة لسنِّ كل طفل.

كذلك، يمكن أن تحتوي على أقراص بها مواد سمعية ومرئية تناسب أعمار الأطفال كالتلاوات القرآنية والأناشيد والقصص، ويمكن أن تحتوي أيضًا على برامج وألعاب كمبيوتر منتقاة باستشارة أهل الصلاح والمربين.

أضافت الأستاذة عبير: إن وجود مكتبة من مواد منتقاة في البيت يُعتَبر من أهم وسائل التربية المنزلية، وعلى الأبوين أن يجعلا من غرفة المكتبة مأوًى لأفراد الأسرة؛ وذلك بأن تكون للأسرة بشكل عام وللأطفال بشكل خاص برامج تعينهم على الاستفادة من مكتبة المنزل، ويجب تجهيز الغرفة بالكراسي والطاولات والسماعات وربما شاشة للعرض وجهاز فيديو وجهاز حاسوب، ويمكن استخدامها للدرس الأسبوعي وقيام الليل وأداء صلوات

النوافل كصلاة الضحى، ويمكن استخدامها أيضًا لمذاكرة الدروس وتسميع ما يحفظه أفراد الأسرة من القرآن الكريم والأحاديث والقصائد، وقد تُستَخدم أيضًا لإقامة البرامج المفيدة والممتعة للأطفال مثل مسابقات الحفظ والقراءة والتلخيص وكتابة البحوث، بالإضافة إلى مسابقات (سين/جيم) المشهورة، ويمكن أن تكون هناك أيضًا مسابقات لتحفيز الأطفال على المذاكرة وحلِّ الواجبات، بالإضافة إلى تخصيص بعض الأوقات لمشاهدة أفلام الفيديو المفيدة وخاصة تلك التي تتحدث عن مخلوقات اللَّه وأحوال المسلمين والتاريخ الإسلامي وعظماء الإسلام.

علَّقت إحدى الأخوات قائلة: وإذا كنا نريد أن نربي أطفالنا ليصبحوا قادة فلا بُدَّ من توفير

نوعيات معيَّنة من الكتب لكي يقرؤوها ويكتسبوا منها شتى المهارات؛ مثل الكتب التي تُشجِّعهم على النجاح والتميُّز، وأخرى تعلمهم مهارات التواصل، وثالثة تغرس فيهم الخصال القيادية، بالإضافة إلى الكتب السياسية والتاريخية التي تُجسِّد لهم نماذج صالحة من القدوات القيادية التاريخية.

الدرس الأسبوعي وأهميته

أردتُ أن أَلفِت نظر الأخوات إلى أهمية الدرس الأسبوعي، فقلتُ: أعتقد أن للدرس الأسبوعي أهمية بالغة في تعليم أفراد الأسرة وصقل مواهبهم، وهو أيضًا وسيلة لتقوية الروابط بينهم، ثم زادت إحدى الأخوات بقولها: أنبه هنا إلى نقطة مهمة تتعلق بالدرس الأسبوعي؛

وهي أن غالبية الشباب والفتيات في أيامنا هذه ينفرون من المواضيع الدينية، ولذلك لا يلزم أن يكون الدرس دومًا في العلوم الشرعية، وإنما يمكن تخصيص بعض الدروس أو فترات من كل درس لمناقشة قضايا المسلمين والأسرة والمجتمع. وإذا كان الموضوع الديني مقصودًا لذاته، فينبغي أن يكون في ثوبٍ عصريٍّ جذَّاب، وأفضل من ذلك أن يكون متضمَّنًا في موضوع علمي كالإعجاز وقدرة اللَّه. كذلك، يمكن أن تكون الدروس عبارة عن قراءة في كتاب، وأيضًا يمكن تقسيمها إلى فئتين إن كان هناك ثمة تباين في أعمار المستهدَفين، لتأخذ كل فئة ما يتناسب وسنَّها.

وبالنسبة لمدة الدرس فأعتقد أنها يجب أن لا تتجاوز الساعة، وأن يكون في وقتٍ مناسبٍ

لجميع أفراد الأسرة؛ كأن يكون يوم الخميس أو الجمعة بين المغرب والعشاء، وخاصة إذا كان هناك من أفراد الأسرة مَن يقضون أيام الأسبوع في الدوام ولا يعودون إلى البيت إلا في العطلة الأسبوعية.

أضافت الأستاذة عبير: كما ذكرت الأخوات فإن الدرس الأسبوعي بالغ الأهمية بالنسبة للأسرة، والإعداد المسبق له مهمٌّ جدًّا لإنجاحه. والطريقة هي أن يُكلِّف الأب أو الأم أفراد الأسرة، وحتى الأطفال منهم، بإعداد فقراتٍ تناسب أعمارهم ومستوياتهم العلمية والعقلية. ولا بأس أن يتم في نهاية كل درس توزيع بعض الجوائز التشجيعية وخاصة للأطفال، وكذلك طرح أسئلة في شكل مسابقة أسبوعية تُوزَّع جوائزها في وقت الدرس.

فهم الواقع وتخيُّر الصحبة الصالحة للطفل

قامت جارتي سمية، فقالت: كما تعلَمْن يا أخواتي إن الإنسان- كما يقال- مدنيٌّ بطبعه، ولذلك فلا يمكن للآباء أن يُنشِّئوا أولادهم في بيئة مغلقة، فلا بُدَّ أن يأتي يوم ويخرج فيه الطفل إلى المجتمع، وعندها سيختلط بالأطفال الآخرين، وسيشاهد ما يجري في المجتمع، مما يجعله عرضة للتأثُّر بما يقع فيه من أمورٍ بعيدة عن تعاليم ديننا، ولا تُرضي اللَّه- سبحانه وتعالى-، فما تعليق الأستاذة على هذا؟

شكرتْ الأستاذة عبير الأخت سمية على سؤالها، ثم قالت: يا أختي الفاضلة، لقد تحدَّثْتِ عن أمرٍ جَلَل، وإنه من المؤسف حقًّا أن تغيبَ هذه الحقيقة عن بال كثير من الآباء والأمهات.

إن معظم أولياء الأمور يَرَوْنَ أنه لا مفر من هذا الواقع، ولذلك فهم يتركون أولادهم يختلطون بأطفال المجتمع دون رقابة أو حصانة. وإني أعرف من الأمهات مَن تقيم الدنيا ولا تُقعِدُها إن رأت ولدها قد عاد إلى البيت وقد اتَّسَخَتْ بعض ثيابه، وبالمقابل لا يهمُّها إن اتَّسخ فكره وساء خلقه بمخالطة رفقاء السوء.

إن على كل أمٍّ أن تكون حريصة على أطفالها فلا ترميهم في الشارع، دون أن تعرف أين يذهبون ومع مَن يختلطون، وعليها كذلك أن تجلس معهم عندما يعودون إلى البيت، فتسألهم أين ذهبوا وماذا فعلوا ومع مَن كانوا، وعندها تستطيع أن توضِّح لأبنائها أنواع السلوك الخاطئة التي قاموا بها أو لاحظوها.

قامت سمية مرة أخرى، فقالت: صدقتِ يا أستاذة عبير؛ فإذا كانت هناك أمورٌ كثيرة علينا نحن الكبار أن نعيها ونفهمها، لنستطيع تحصين أنفسنا مما يدور حولنا ومما نسمعه ونشاهده في مجتمعنا، فكيف يمكن للصغير العاجز أن يدفع عن نفسه ضرًّا أو يجلب إليه نفعًا؟!! وكما ذكرتِ يا أستاذة، فعلى الأبوين أن لا يرميا بطفلهما ليكون فريسة لذئاب المجتمع، ومطية لتحقيق مآرب وطموحات مَن شاء، من خلال ما ينفثونه في قلوب الأطفال وعقولهم من سموم وأفكار هدامة، وإنما عليهما أن يدرسا المجتمع الذي يعيشان فيه، ويتعرَّفا على ما يدور فيه ليستطيعا تحصين أنفسهم وأطفالهم.

علَّقت أختٌ أخرى: أعتقد أن قضية فهم المجتمع من القضايا المهمة جدًّا، لأننا نعلم

أن المتمسِّكين بهَدْي هذا الدين قلة في زماننا هذا مقارنة بالكثرة الساحقة التي ليست على هدى من اللَّه، أو تلك التي خلطت بين الصلاح الظاهري والغواية الباطنة والعياذ باللَّه. وهذا يُحتِّم علينا أن نضاعف جهودنا في الاهتمام بأطفالنا؛ فمن ناحية علينا أن نوجِد بيئة الخير التي ستدفع- بإذن اللَّه- عنا وعن أَطفالنا الضُّر، وتُهيئ لهم وسائل الخير والرشاد، ومن ناحية أخرى، فعلينا أن لا نكتفي بتنشئة أطفالنا على الصلاح والتقوى، وإن كان هذا في حد ذاته مهمة ليست باليسيرة إلا على مَن أعانه اللَّه- سبحانه وتعالى- عليها ووفقه إليها وهداه إلى الأخذ بأسبابها، ولكن علينا أن ننشئ أطفالنا ليكونوا أيضًا أدوات إصلاحٍ للمجتمع.

زادت إحدى الأخوات بقولها: أعتقد أنه إذا كنا جادِّين في تحصين أطفالنا مما في المجتمع من منكرات؛ فعلينا أن نتخيَّر لهم الصحبة الصالحة والبيئة الصالحة التي تُمكِّنهم من الاختلاط بأطفال لا يُخشى منهم. لكن العقبة التي قد تواجه الأبوين هي العادات والتقاليد التي تُحتِّم علينا- أحيانًا- الاختلاط بأناسٍ يُخشى منهم أن يؤثروا سلبًا على أطفالنا- حتى ولو كانوا من أقاربنا-. وإذا كان الأبوان- في بعض الأحيان- لا يستطيعان الاقتصار على مصاحبة مَن هو مؤتمنٌ على دينه، فكيف بالأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة؟!! وأعتقد أن على الأبوين أخذ هذا الأمر بجدِّية؛ وذلك بعدم ترك أولادهما مع بقية أطفال الذين يزورنهم أو يذهبون لزيارتهم، وإنما تكون هناك رقابة على تصرفاتهم، ويمكن أن يكون ذلك من خلال

إحدى البنات الكبار التي تعي ما يمكن أن يقوم به الأطفال من سلوك لا يليق.

جهاز التلفاز وكيفية التحكُّم فيه

رأيتُ أن هذه فرصة سانحة لي للمشاركة، فقمتُ وقلتُ: يا أخواتي، أنا في بدايات حملي الأول، وإني متخوفّة جدًّا من وجود التلفاز في البيت، فقد شاهدتُ أطفالاً في بعض البيوت يقضون ليلهم ونهارهم أمام شاشة التلفاز، وينتقلون من قناة لأخرى دون رقيب أو حسيب، وقد تناقشتُ مع زوجي حول ضبط هذه المسألة قبل مجيء طفلنا، واقترحتُ عليه أن نرمي هذا الجهاز من بيتنا لنتّقي شرَّه وبواره.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: أختي العزيزة، إنك بهذا تتصرَّفين كما تتصرَّف بقية النساء عندما

تدفع أولادها لمشاهدة التلفاز؛ فهذا الجهاز أداة بناء وهدم، وإقصاؤه عن المنزل يعني أن الأبوين عاجزان عن القيام بمسؤوليتهما حياله.

فقلتُ للأستاذة عبير: ولكن كيف يمكننا أن نُبقي ذلك الشيطان في البيت، وأنتِ تعلمين ما فيه من آفات متلاطمة، وفي الوقت نفسه نكون متأكدين من أنه لن يؤثر سلبًا على أطفالنا؟!!

ابتسمت الأستاذة، ثم قالت: أعلم يا أختي الكريمة أن هذه مهمة شاقة، ولكن- بالمقابل- هناك طرق عديدة يمكن أن تُعين في هذا الجانب، وأذكر هنا بعضًا منها. أولاً، على الأبوين أن يتخيَّرا القنوات التي يمكن لأطفالهما مشاهدتها، ويمكنهما معرفة هذه القنوات عن طريق سؤال أهل الصلاح.

وعليهما كذلك أن لا يكتفيا بتحديد قنوات معينة لأطفالهم، وإنما عليهما تتبُّع تلك القنوات ومشاركة أطفالهما في مشاهدة البرامج التي تُبَثُّ فيها، وعندما يرَيان مشهدًا لا يناسب المبادئ والقِيَم التي يريدان تنشئة أطفالهما عليها، فعليهما أن يقوما بواجبهما بتوضيح ما في ذلك المشهد من مخالفات، ويكون ذلك طبعًا بأسلوب يتناسب مع سنِّ الطفل وقدراته الإدراكية.

لُعَبُ الأطفال وأهميتها في التربية

تشجَّعتُ من تعليق الأستاذة عبير على ما قلتُه حول التلفاز، فقمتُ مرة أخرى، وقلتُ: هل عندك يا أستاذة أو عند الأخوات الحاضرات أيُّ تعليق حول ما يمكن اقتناؤه من لعب الأطفال؟

ردَّت الأستاذة عبير: أشكرك يا أختاه على طرح هذه القضية المهمة، وإني أترك المجال أولًا للأخوات الحاضرات للتعليق عليها.

قامت إحدى الأخوات، فقالت: كما ذكرتُنَّ يا أخواتي، فإن من مهمة الأبوين تهيئة البيت لاستقبال الطفل الجديد، وأرى أن انتقاء الألعاب هو أحد جوانب هذه التهيئة؛ فلا يمكن للأبوين شراء أية لعبة يجدانها في السوق، وإنما عليهما أن يتخيَّرا منها ما يمكن أن يُنشِّئ أطفالهما على القِيَم والمبادئ التي جاء بها ديننا. وعلينا أن نعلم أن هناك من الألعاب ما يمسُّ العقيدة ويهدم قِيَم الدين.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: كما تُدركْنَ يا أخواتي فإن للألعاب أهمية بالغة في حياة الأطفال؛ فهي تُنمِّي مداركهم وقدراتهم الذهنية،

وتُنمِّي فيهم الجانب المعرفي، وتُشجِّعهم على التعاون والعمل الجماعي من خلال مشاركة الآخرين في ألعابهم، بالإضافة إلى تنمية مهارات التخطيط والقيادة عندهم. من أجل هذا، فإن على الأبوين مسؤولية كبرى في انتقاء الألعاب التي تحقِّق هذه الجوانب، وفي الوقت نفسه لا تضرُّ بدين الطفل أو فكره أو عقله.

وعليكنَّ أن تعلَمْنَ إن ما هو موجودٌ في السوق أو الإنترنت من هذه الألعاب فيه الغثُّ والسمين والضارُّ والنافع، وكثيرٌ من ألعاب الكمبيوتر والسيجا والبلاي ستيشن تُعلِّم الطفل الاتكالية والسهولة في الحياة؛ فكل شيء بضغطة زر، وهي - في حقيقة الأمر- أخطر من التلفاز، لأنها تُعلِّم الطفل العنف والإحباط والفشل، والحل ليس في حرمانهم من هذه

الألعاب بتاتًا، ولكن بتحديد أوقات اللعب وأنواع الألعاب التي يمكن لعبها، والأَوْلى من كل ذلك أن ننمي لديهم الهوايات النافعة مثل الرسم والفكِّ والتركيب.

قامت أخت أخرى، فقالت: أعتقد أن هناك فهمًا خاطئًا بين كثير من الآباء والأمهات، وهو اعتقادهم بأن الأطفال- وخصوصًا في الأشهر الأولى بعد الولادة- لا يفهمون الفارق بين هذه اللعبة وتلك، وإنما هي مجرد مجسمات يحركونها. وحقيقة الأمر أن الطفل يتعلم من كل ما يسمعه ويشاهده. ولذلك، علينا أن نحرص على أن لا يقع في سمع الطفل ما فيه مخالفة شرعية، كالموسيقى والغناء والكذب والكلام البذيء. كذلك، علينا أن نحرص على عدم مشاهدة الطفل ما لا يتوافق مع ديننا الحنيف،

لأن ذلك سيَرسَخ في ذهنه ويبقى في ذاكرته إلى أن يكبُر.

قامت جارتي سمية، فقالت: أحبُّ أن أنبِّه أخواتي إلى أمر مهم، وهو ضـرورة تحديد وقتٍ معيَّن للطفل ليقضيه مع ألعابه، بحيث لا يكونَ هذا الوقت على حساب الأمور الأخرى في حياة الطفل، كحفظ القرآن الكريم، وتعلُّم أمور الدين، ومذاكرة الدروس، وقراءة الكتيبات والقصص، والمشاركة في مهام المنزل. ومن المؤسف حقًّا أن نرى كثيرًا من الأمهات يصرِفْنَ أولادهنَّ إلى غرفة الألعاب، ويتركنَهم هناكَ ما شاؤوا من الوقت بحجة أنه لا ضرر عليهم في ذلك.

بعد أن أنهت سمية حديثها، قالت الأستاذة عبير: أظن أننا تحدَّثنا اليوم في هذه الندوة في

قضايا كثيرة، ولذلك فإننا سننهيها اليوم على أمل أن نلتقي- بإذن اللَّه- في الأسبوع القادم لنكمل الحديث حول قضايا أخرى تتعلق بموضوع تربية الأطفال.

شكرت الأستاذة عبير الأخـوات اللاتي حضرنَ الندوة، وشجَّعتهنَّ على الحضور في الأسبوع القادم، وطلبت منهنَّ اصطحاب نساء أخريات إلى الندوة القادمة ليعمَّ الخير وتنتشر ثقافة التربية الصحيحة بين النساء.

الحوار الثالث: أخطاء تربوية شائعة

في الأسبوع التالي، ذهبتُ مرة أخرى مع جارتي سمية إلى مدرسة أشبال القرآن الخاصة، وذلك لحضور الندوة الثانية التي تقيمها الأستاذة عبير، المتخصِّصة الاجتماعية بالمدرسة، حول تربية الأطفال، وقد كان الحضور في هذه المرة أكبر من الندوة السابقة. في بداية الندوة شكرت الأستاذة عبير الأخوات الحاضرات على المشاركة، وأخبرتهنَّ بأنها ستخصِّص هذا اللقاء للحديث عن الأخطاء التربوية الشائعة عند الآباء والأمهات.

ظاهرة إهمال الأمهات لأولادهن

واصلت الأستاذة عبير حديثها، فقالت: وأريد أن أفتتح هذه الندوة بالحديث عن ظاهرة متفشِّية في مجتمعاتنا وهي إهمال الأمهات لأولادهنَّ، وصرف معظم أوقاتهنَّ في تنظيف البيت وترتيبه، وفي طهي الطعام وغسل الملابس وكيِّها، وفي محادثة الجارات والصويحبات، وأريد منكنَّ التعليق على هذا الأمر.

قامت إحدى الأخوات، فقالت: أولاً، نشكر الأستاذة عبير على مواصلة هذه الندوة المثمرة بإذن اللَّه، وبالنسبة لموضوع الندوة فأقول بأن ما تقولينه صحيح؛ فواقع نساء المسلمين مؤلِمٌ جدًّا؛ فهُنَّ يقضين جُلَّ أوقاتهن في الأمور التي ذكرتِها، ولا يكون لأطفالهن نصيبٌ من وقتهن إلا اليسير. بل إني لاحظتُ- وللأسف الشديد-

من النساء مَن تدفع أبناءها للخروج من المنزل أو البقاء أمام التلفاز أو تكِل أمرهم إلى الخادمة، لا لشيءٍ هادف وإنما لتصرفهم عن مضايقتها، وليفرُغ لها الوقت لقضاء أعمال المنزل. وأعتقد أن هذا يعود إلى قلة علم هـؤلاء الأمهات بالمسؤوليات الملقاة على عاتقهنَّ، وأيضًا إلى كثرة انشغالهنَّ، أو بالأحرى إشغال وإلهاء أنفسهنَّ، بأمورٍ بعيدة عن الواجبات الحقيقية التي عليهنَّ ممارستها. والشاعر يقول:

وينفعُ الأدبُ الأحداثَ في صِغَرٍ
وليسَ ينفعُ عند الشَّيْبَةِ الأدَبُ
إنَّ الغُصونَ إذا قوَّمْتَها اعتَدَلَتْ
ولنْ تلينَ إذا قوَّمْتَها الخشُبُ

قامت جارتي سمية، فقالت: يا أخواتي، إن توفير الطعام والشراب والكساء للطفل لا يقوم مقام التكاليف الأخرى التي على الأبوين القيام بها تجاه أطفالهم، فمؤانسة الطفل في معظم أوقاته لهي من الأمور المهمة جدًّا؛ فإنه كما يملُّ الكبار يملُّ الصغار. فالطفل الذى يُترَك للبكاء والألم لا يستوي مع غيره ممن لقي الملاعبة والحنان والعناية.

لذلك، علينا أن نقضي معهم أوقاتًا ممتعة ومفيدة؛ فعلينا مثلاً أن نكون بجانبهم عند مشاهدة التلفاز، أو عند قضائهم فترات اللعب؛ فوجودنا بجانبهم سيُحقِّق لهم المؤانسة والطمأنينة، ويحقق لنا إمكانية انتقاء البرامج النافعة لهم، وتقديم النصائح والتوجيهات أثناء

مشاهدتهم لتلك البرامج، بالإضافة إلى إيضاح الأمور المبهمة عليهم.

علَّقت الأستاذة عبير، فقالت: بلا شك أن هذا الأمر في غاية الأهمية؛ فإن وجود الأبوين بجانب أطفالهم سيبعث في نفوس الأطفال الانشراح والطمأنينة، ويجعلهم ينظرون إلى الأبوين على أنهما المثال والقدوة، ولذلك ينبغي على الأبوين عندما يجلسان مع أطفالهم أن يتفحَّصا ما يقولانه وما يتصرَّفان به، لئلَّا يكون في ذلك ما يمكن أن يؤثر سلبًا على الطفل.

ظاهرة العناد عند الأطفال والانفعال والعنف عند الأبوين

استأذنتُ الأستاذة عبير في الحديث ثم قلتُ: من الظواهر التي قرأتُ عنها كثيرًا ورأيتُها جلية

في كثير من الأطفال ظاهرة العناد، وما يصاحبها من انفعالات عند الأبوين وعدم قدرتهما على التحكُّم في أعصابهما، فما تعليقكُنَّ على هذا؟

قامت إحدى الأخوات فقالت: يا أخواتي عليكُنَّ أن تعلَمْنَ بأن عناد الطفل لا يدلُّ

على أنه شيءٌ سلبيٌّ عند الطفل؛ فهو - غالبًا- ما يصدر من الأطفال حادِّي الذكاء، والذين يريدون بمثل هذه التصرُّفات أن يكتشفوا العالم من حولهم. لكنه ومع ذلك فإنه يبقى قضية لا بُدَّ للوالدين أن يعرفا كيفية التحكُّم فيها والتغلُّب عليها. وأهمُّ أمرٍ على الوالدين أن يتعلما التحكُّم في أعصابهما، وعدم الانفعال أو التسرُّع في معاقبة الطفل عندما يصدر منه مثل ذلك العناد.

قامت أختٌ أخرى، فقالت: وفي هذا السياق، أريد التعليق على ظاهرة الانفعال

والعنف التي يقع فيها كثيرٌ من الآباء والأمهات؛ إذ إننا نعلم أن الطفل- بطبيعته- في داخله طاقة هائلة يحتاج إلى تصريفها، وهو في الوقت نفسه قليل الحيلة، قليل العلم والفهم، ولذلك قد يقوم بتصرفات، أو يقول كلامًا لا يُعجِب الأبوين، فينفعل أحدهما أو كلاهما فيردَّ على الطفل بأسلوب قد يؤثر عليه سلبًا من الناحية التربوية والنفسية.

فمثلاً، قد يتصرَّف الطفل بطريقة لا تعجب الأبوين، فيرفع أحدهما صوته عليه، والطفل لا يدري ما الذنب الذي ارتكبه، وعندئذٍ سيحاول تفسير الأمور حسب فهمه البسيط. وإذا تكرر هذا الفعل من أحد الأبوين أو كليهما فقد تبدأ تنغرس في ذهن الطفل معتقدات خاطئة

إما حول الأبوين وإما حول الأمور التي يقوم بفعلها.

لذلك، ينبغي أن يتعامل الأبوان مع أطفالهما بالحكمة؛ فلا ينفعلان عندما يشاهدان أحدهم يقوم بأمرٍ يعتقدان خطأه، وإنما عليهما الجلوس معه جلسةً مودَّة وإخاء، ويعاملانه وكأنه صديق عزيز وليس كطفلٍ صغير، ومثل هذا التصرُّف من جانب الأبوين سيُشعِرُ الطفلَ بمكانته عندهما، ويجعله يتقبل الكلام الذي يصدر منهما بنفس راضية.

علَّقت الأستاذة عبير، فقالت: كما قالت إحداكُنَّ، فظاهرة العناد ليست سيئة في حدِّ ذاتها، ولكن السيِّءَ تصرفات الوالدين تجاهها. ولو أمعنا النظر في الحالة النفسية للطفل المعاند لوجدنا أنه يتلذَّذ بالتصرفات التي يقوم

بها، وخاصة عندما يرى انفعال والديه، لأن ذلك- في اعتقاده- انتصار له.

والحلُّ لهذه الظاهرة تحسيس الطفل أن الأبوين هما المتحكِّمان في شؤونه، ولا ينبغي أن يكون ذلك بالقوة والعنف، وإنما أولاً بضبط النفس، ثم بحسن المعاملة للطفل، وشرح الأفعال الخاطئة التي يقوم بها بكلمات واضحة، وإبراز جوانب الخطأ فيها بأسلوبٍ يستوعبه الطفل. كذلك، إن توفير أوقات كافية للعب- وخاصة بألعاب الذكاء- كفيلةٌ بأنً تفرِّغ كثيرًا من طاقات الطفل. ويمكن أيضًا أن يكون للقصة الرمزية الهادفة وسِيَر الصحابة والصالحين دورٌ في تعديل سلوكه.

وفي حالة استنفاذ جميع الحلول السلمية معه، فإنه يمكن للأبوين استخدام طرق أخرى أكثر صرامة ولكنها لا تؤذيه. من تلك الطرق ما

يعرف بـ «أكاديمية التعليم»، وهي أنه إن رفض الطفل الانصياع لأمرٍ ما فإن المربي يقول له: أنت بحاجة إلى تدريبٍ على فعل هذا الأمر، ثم يؤجل الأمر إلى وقت غير مناسب للطفل كمشاهدة التلفاز أو اللَّعب على الحاسب الآلي، ثم يأتيه المربي ويقول له: لقد حان وقت التدريب الآن، ثم يطلب منه القيام بالأمر الذي رفضه سابقًا ويكرره مرات ومرات لنصف ساعة أو أكثر، بحيث يتعلم الطفل من تكرار هذا العمل الممل الانصياع والطاعة وعدم العناد، وهناك تفاصيلُ لهذه الطريقة، بالإضافة إلى وسائل أخرى كثيرة ونافعة.

ظاهرة إحراج الأطفال وإضعاف شخصيتهم

قامت أختٌ أخرى، فقالت: وأريد أن أضيف أمرًا آخر إلى هذه المسألة، وهي إحراج الأطفال

أمام الآخرين، فقد رأيتُ حالات كثيرة عندما كنتُ أزور بعض النساء، حيث يأتي أطفالهن ويتصرفون بطريقة لا تعجبهنَّ، كأن يأخذ الطفل قطعة حلوى، أو يدلق كأس ماء، أو يصعد على الطاولة، أو يقوم بأفعال أخرى تثير حفيظة الأم، فتنفجر في وجهه، وتُعلي صوتها عليه، وربما يأخذها الغضب والانفعال فتضربه، وأعتقد بأن مثل هذا التصرُّف يُضعف شخصية الطفل، ويجعلها مهزوزة أمام الآخرين، وأنا شخصيًّا لا أميل ولا أرتاح للضرب والعقاب البدني؛ فهناك طرق وأساليب أخرى بديلة للمحاسبة والمعالجة، ولا أستخدم الضرب إلا في حالات ضيقة جدًّا، وبعد استنفاد كافة الوسائل.

علَّقت الأستاذة عبير بقولها: إن معاملة الطفل على أنه صغير لا يفهم، وتحقير كل ما يفعله، واستخدام أساليب الضرب والتوبيخ والإهانة

والنقد المتواصل يجعل تخيُّله لإمكانية نجاحه في المستقبل أمرًا صعبًا؛ لأن القسوة تقتل عنده كثيرًا من جوانب التوازن والإبداع، وتجعله يفقد الثقة بنفسه، وخاصة عندما يرى أهله يعاملونه بقسوة، ويشعرونه أنه فاشل أو غير ذكي أو فيه صفات سلبية، فيستنتج بصورة أو بأخرى أن المجتمع سيقابله بما هو أسوأ من ذلك، فينشأ خجولًا منعزلًا غير متوازن.

وهنا علَّقت جارتي سمية قائلة: إن إضعاف شخصية الطفل لا يحتاج إلى الضرب؛ فقد سمعتُ أن هناك من الآباء مَن يُحرجون أطفالهم في حضرة الكبار لأسباب تافهة. فمثلًا، قد يحاول الطفل التعليق على كلامٍ قاله أحد الكبار، فيزجره أبوه ويطلب منه السكوت والتأدُّب في

حضرة الرجال، وقد يسخر الأب من كلام ولده، وربما وصف كلامه بأنه سخيف أو لا معنى له.

كل هذه الأفعال تهزُّ شخصية الطفل، وتجعله انطوائيًّا، وتؤثر عليه سلبًا عندما يكبر بحيث لا يجرؤ على المشاركة في التجمُّعات، فنجده مثلاً لا يُحسن المشاركة في الصف أو في الجماعات الطلابية، وإذا حضر مجلسًا فيه رجال، وطُلِب منه أن يبدي رأيه في أمرٍ فإنه لا يدري ما يقول، وربما يعتذر عن المشاركة، وهذا يُنبئ عن ضعفٍ في شخصيته، وعن خوفٍ داخليٍّ من الإحراج أمام الآخرين، والذي كان منشؤه ما كان يوقعه الأبوان له وهو في سنه المبكرة.

زادت الأستاذة عبير بقولها: الحقيقة أن هناك أمورًا كثيرة لا بُدَّ من مراعاتها مع الأطفال، وإن

أيَّ تصرُّف من قِبَل الأبوين مع أطفالهم قد يؤثر على شخصيتهم وحياتهم فيما بعد. وقد رأيتُ بعض الأطفال الصغار لا يبرحون التعلُّق بأمهاتهم، وربما الجلوس على أفخاذهن، وإن قُمْنَ عنهم بكوا.

وفي اعتقادي أن منشأ ذلك هو كثرة المراقبة والمتابعة للطفل منذ أيامه الأولى؛ فالأم تبقى محتضنة له، ولا تدعه يَفْلُتْ من يديها، وقد يرى الطفل الرضيع لعبة أو أيَّ شيء آخر فيحبو إليه، ولكن الأم لا تتركه يفعل ذلك، بحجة أنها تخاف عليه. كل ذلك يجعل الطفل لا يحب الحركة، ويخاف من ابتعاد الأم عنه، وهذا في اعتقاد الأم أمرٌ حسن؛ إذ هي تحافظ عليه، ولكن الحقيقة أن ذلك التصرُّف من قِبَلها يؤذيه، ويؤثر في شخصيته كثيرًا.

ظاهرة فقدان العدل بين الأطفال

كنتُ قد تناقشتُ مرة مع زوجي موضوع العدل بين الأولاد، فأحببتُ أن آخذ رأي الأستاذة عبير والأخوات المشاركات حول هذه القضية، فقمتُ وقلتُ: أريد التحدُّث عن موضوع آخر وهو العدل بين الأولاد، لأني شاهدتُ بعض الأمهات تُحابي بعض أولادها وتترك آخرين، مما يثير أحقادًا في نفوسهم تجاه بعضهم بعضًا، وربما تجاه الأم نفسها.

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: مما لا شكَّ فيه أن ميل الإنسان الفطري لإنسان دون آخر هو أمرٌ قد يصعب التخلُّص منه. لكن الأمر المهم الذي على الأبوين الانتباه إليه هو عدم ترجمة ذلك الميل القلبي إلى تمييز في المعاملة والعطاء بين الأولاد؛ فنجد الأب مثلاً يبَشُّ في وجه ابنته

المتفوِّقة دراسيًّا، بينما تراه فظًّا مع ابنه الآخر ذي التحصيل المتوسط أو المتدنِّي. وقد تقسو الأم مثلاً على البنت الصغيرة إن رأتها تأخرت في الاستيقاظ من النوم، بينما تترك البنين ينامون إلى ما شاؤوا من الوقت.

قامت جارتي سمية، فقالت: أعتقد أن موضوع العدل بين الأطفال في غاية الأهمية، وربما يؤدي إلى تدمير الأسرة إن لم يتنبه الأبوان إليه من البداية؛ فهما عندما يرزقان بطفلهما الأول، فإنهما يفرحان به كثيرًا، وسيحاولان تدليله وتوفير كل ما يعتقدان أنه صالحٌ ومفيدٌ له، وهذا أمرٌ لا بأس فيه ما داما يستطيعان التحكُّم في أقوالهما وأفعالهما وتصرفاتهما عندما يكونان بجانبه.

لكن المشكلة تبدأ عندما يُرزقان بالطفل الثاني ثم الثالث، وهكذا، فعندها يحدث نوع من الارتباك في طريقة تربية الأطفال؛ فالأبوان يكونان قد تعوَّدا على محبة طفلهما الأول، ويكون قد رسخ في ذهن ذلك الطفل أن حياته مرتبطة بحياتهما، فتجده لا يريد مفارقتهما، وتجد الأبوين يحنِّان عليه كثيرًا.

وعندما يُرزقان بالطفل الثاني، يبدآن تحويل اهتمامهما إليه، وعندها يشعر الطفل الأول بتناقص اهتمام الأبوين به، ويراهما يهتمان بأخيه الصغير أكثر من اهتمامهما به، ولذا فإنه سيحاول صرف اهتمامهما إليه من خلال أفعال وأقوال يأتي بها، والتي عادة ما تُزعِج الأبوين، فيتصرفان حياله تصرُّفًا لم يتعوَّد عليه من قبل، فتنشأ في نفسه عداوة تجاه الطفل الصغير الذي

في اعتقاده أنه انتزع حنوَّ أبويه منه، ويبدأ في محاولة الانتقام منه.

وتبدأ المعركة بين الأبوين والطفل الأول؛ فهما ينظران إلى تصرفاته على أنها غريبة وغير معهودة، وأنها لا تليق بمَن في مثل سنِّه، وأنها قد أصبحتْ لا تتماشى مع ما علَّماه من قبل من آداب وأخلاق وسلوك، وعندئذٍ يبدآن في التصرُّف معه بشدة وعشوائية، فيرى هذا التصرُّف غير المألوف من والديه، فيزداد غيظًا وحقدًا على أخيه الصغير، وتبقى الأسرة في عراك مستمر.

علَّقت إحدى الأخوات، فقالت: أعتقد أن هذه المسألة في غاية الأهمية؛ إذ بإمكانها أن تُدمِّر شخصية الطفل التي كانت من قبل راسخة ثابتة، ويمكن أيضًا أن تقلب المبادئ والمفاهيم

التي انغرست في ذهنه. وأظن أن تصرُّف الأبوين حيال طفلهما الجديد ينبغي أن يكون بصورة لا توقظ أية كراهية أو عداوة ضده من قِبَل إخوته الكبار. وهذا الأمر ليس بالسهل، فإنه يحتاج من الأبوين أن يضبطا مشاعرهما، وأن يزيد حنوُّهما على طفلهما الأكبر لكي لا يشعر بالغيرة والكراهية تجاه الطفل الصغير.

العنف الأسري وتأثيره على المراهق

علَّقت الأستاذة عبير، فقالت: وبطبيعة الحال، تبدأ الأمور في التعقيد أكثر كلما ازداد عدد الأطفال في الأسرة، وخاصة عندما يبدأ بعض الأطفال في دخول سنِّ المراهقة، بينما هناك من الأطفال الصغار من يحتاجون إلى رعاية واهتمام أكبر، ويصبح الأبوان في حيرة كبيرة، لا يدريان كيف يتصرفا مع ابنهما المراهق

بطريقة تُكسبه الاحترام والودَّ، وفي الوقت نفسه لا يهملان الأطفال الصغار.

فقامت إحدى الأخوات وقالت: إني أعتقد أن أكثر المشاكل التي تنشأ بين الأبوين والأطفال يكون منشؤها تصرفات الأطفال الكبار؛ فالطفل الكبير يرى أنه كلما زاد طفل جديد في الأسرة قلَّ اهتمام الأبوين به، وانصرف الاهتمام إلى إخوته الصغار.

وعندما يتقدَّم سِنُّ الطفل الكبير فإنه لا يقوم بالانتقام من هذا التصرُّف من قِبَل الأبوين- والخاطئ في نظره- بطريقة مباشرة، ولكنه يلجأ في بعض الأحيان إلى تبنِّي أخلاق أو عادات شائنة، لكنها- في نظره- يمكن أن تكون انتقامًا رادعًا لأبويه، فربما يبدأ في الكذب، وقد يلجأ إلى السرقة، أو العنف الجسدي مع إخوته الصغار، وخاصة في غياب الأبوين، فيحاول

الانتقام من إخوته الصغار إما بالضرب أو بإيقاعهم في أمورٍ تؤذيهم جسديًّا أو تُغضِب والديهم عليهم.

وربما تتأزَّم حال الأطفال الكبار- وخاصة المراهقين منهم- فيلجؤون إلى التدخين أو المخدرات أو فعل الفواحش كالعادة السرية أو عمل قوم لوطٍ- والعياذ باللَّه-، وكلها بسبب ضعف العلاقة بين الطفل وأبويه، والتي ينشأ عنها أيضًا عدم اكتراث الأطفال بما يسمعانه من الوالدين من توجيهات ونصائح.

دور الأبوين في تلافي الأخطاء التربوية

علَّقت الأستاذة عبير قائلة: ربما تُلاحِظْنَ يا أخواتي من خلال المحاورات السابقة أنَ قضية التربية هي في غاية الحساسية، إذ إن أيَّ خطأ في تصرفات الأبوين قد يؤثِّر سلبًا على حياة

أطفالهم؛ وربما يجعل أطفالهم يشبُّون عالة على المجتمع لا قيمة لهم ولا أهمية، وربما يرتكبون من المعاصي والآثام ما يكون سببًا في شقائهم في الآخرة، وربما شقاء أبويهم معهم.

وإني أعتقد أن على الوالدين أن يكونا على دراية بهذه الأمور، ويتناقشا في أهميتها، ويتبيَّنا أبعادها وعواقبها قبل حدوثها، فلعلَّهما يستطيعان اتخاذ التدابير الناجعة حيالها، فهذا خيرٌ لهما من أن يغضَّا الطرف عنها ويتناسيا الأمـر، ولا يفيقا إلا عندما يشاهدان تلك التصرفات تقع أمامهما، وعندها لا يدريا كيف يتصرفان حيالها بطريقة صحيحة، مما قد يؤدي بهما إلى الانفعال والتصرُّف بطريقة خاطئة قد تؤثر على أطفالهما.

وأذكِّر أخواتي مرة أخرى بما قلناه في الندوة السابقة من ضـرورة تخصيص جلسات بين

الأبوين، يتناقشان فيها ما يشاهدانه من تصرُّفات أطفالهم، حتى وإن كانت من طفلهما الرضيع؛ فلو شاهدا مثلاً الطفل يبتسم أو يحرك يده أو يقوم بفعل معين أو ينطق بكلمة فإن عليهما أن يتذاكرا ذلك ويتناقشانه فيما بينهما. كذلك، لو شاهدا تصرفات من أمهات أو آباء- سيئة كانت أو حسنة- فعليهما طرح ذلك أيضًا للمناقشة، وإذا استطاعا الالتزام بمثل هذا اللقاء فإنهما سيستفيدان- بإذن اللّه- كثيرًا، ويكونان أقدر على تخطِّي العديد من العقبات والتحديات التي عادة ما يتعرضان لها.

وبعد أن ختمت الأستاذة عبير كلامها هذا، قالت: إني أعلم أن موضوع تربية الأطفال شائكٌ ومتشعِّب، ولا يمكن استقصاؤه في ندوة أو ندوتين. لكن هناك- كما ذكرنا- وسائل أخرى كالكتب والأشرطة والدورات التخصُّصية التي

يمكن أن تفيد في هذا الجانب، وما عليكُنَّ يا أخواتي إلا المبادرة والاهتمام. أشكركُنَّ جميعًا على حضور هذه الندوة، وأتمنى لكنَّ حياة سعيدة تغمرها المحبة والوئام، وأسأل اللَّه أن يُبصِّرَكُنَّ بتربية أطفالكنَّ على الوجه الصحيح.